"الإبادة الجماعية في معسكرات الاعتقال في برقة: التداعيات والعواقب على السكان الأصليين".

جامعة طبرق، 18-19نوفمبر 2023م.

عنوان الورقة: معسكرات الاعتقال والحقول التجريبية والقرى الزراعية: تاريخ من التجريد من الملكية والسيطرة.

ماريا لويزا بالومبو

تركز هذه الورقة على العلاقة بين الاستعمار الزراعي والعنف الاستعماري في برقة. إنني أرى أنه بالإضافة إلى المسؤوليات الواضحة للمسؤولين السياسيين والعسكريين، هناك مسؤولية أقل وضوحًا وأقل دراسة، ولكنها ليست أقل أهمية عن معاناة شعب برقة، قبل وبعد ترحيلهم وإيداعهم في معسكرات الاعتقال، تقع ضمن المسؤولية. الخطط والتصاميم للمنطقة من الخبراء الاقتصاديين والمهندسين الزراعيين الإيطاليين. وبالتالي فإن ما تفعله هذه الورقة هو الاستماع، واحدة تلو الأخرى، للخطوات الرئيسية والأدلة الوثائقية المتاحة حول مشاركة هذه النخبة التقنية والثقافية في إعادة تصميم المشهد المادي والعرقي للمنطقة، من أجل متابعة استعمار زراعي وديموغرافي "عقلاني" وناجح.

يتكون العرض من 5 مسارات أو فصول:

1.

قبل المحاولة الإيطالية عام 1911 للسيطرة على الأراضي والشعب الليبي، كان عدد قليل من المستكشفين الإيطاليين قد زاروا البلاد بالفعل، لكن أولئك الذين فعلوا ذلك، تحدثوا بحماس، خاصة عن برقة، عن "تربة خصبة للغاية" و"حدائق خرافية". "،"النباتات المورقة"، "أعجوبة الخضرة والتلال"، والأرض "الخصبة للغاية" لدرجة أنها يمكن أن "ترحب بجزء من هجراتنا، وخاصة هجرة فقراء صقلية" قادرة على "السماح على الاقل لمليونين آخرين على الأقل من المزارعين بالانتقال والعيش هناك في برقة".

لكن الصحراء والمناخ الجاف للمنطقة أصبحا عنصرين رئيسيين في صفحات اللجنتين العلميتين اللتين قامتا، حتى قبل نهاية الحرب، ابتداء من ربيع عام 1912، بزيارة طرابلس لدراسة الآثار الجيولوجية والزراعية، والأوضاع الاقتصادية في ليبيا.

ومما له أهمية خاصة هنا الملاحظات الناتجة عن المهمة التي قادها السياسي والاقتصادي والباحث من الجنوب الإيطالي ليوبولدو فرانشيتي، رئيس المعهد الزراعي الاستعماري الذي تأسس في فلورنسا قبل بضع سنوات. في ربيع عام 1913، وبينما كانت معظم الأراضي لا تزال خارج السيطرة الإيطالية، كان فرانشيتي في طرابلس ليكرس نفسه لدراسة جبل نفوسة، الهضبة الواقعة خلف طرابلس.

لم تكن هذه الأرض، مثل الأراضي الزراعية في معظم أنحاء إيطاليا والهضبة الإريترية، أرضًا "صديقة للإنسان" ولكنها كانت بالأحرى "خصمًا عنيدًا، مستعدًا للرد بالهجوم بمجرد أن يتوقف عن مراقبته وإجباره". وعلى هذا فإن ما كان ضرورياً كان "حرباً علمية": وفي الواقع، إذا تم "إنجاز الغزو العسكري لطرابلس" بسعادة، فإن "الفتح الزراعي" لم يتحقق بعد.

بالنسبة لأوبرتو مانيتي، الرئيس المستقبلي للخدمات الزراعية في ليبيا، ومؤلف جزء كبير من تقرير فرانشيتي وخاصة الأقسام المتعلقة بالمناخ، كان من الضروري الاعتراف بالتحدي التقني العلمي الجديد: الثقافة القاحلة، التي هو "اتجاه خاص للغاية طبقته العلوم على زراعة الحقول في المساحات القاحلة وشبه القاحلة الشاسعة من الكرة الأرضية." الهدف من هذا المجال الجديد للبحث العلمي هو تجاوز الاستغلال الخفيف لزراعة الكفاف، لخلق أشكال جديدة من الاستغلال المكثف للتربة، من خلال "اختيار أصناف أكثر مقاومة للجفاف وربما الإنتاج المحلي لسلالات خاصة بشكل رئيسي من خلال الاختيار الذي يضاعف إنتاجية المحاصيل.

ومن وجهة النظر هذه، يرى مانيتي أنه كان من الضروري التعلم من الأمم التي سبقتنا في هذا المجال. "تجد الولايات المتحدة نفسها اليوم تتمتع بأكبر قدر من الكفاءة بسبب العمل الأخير والمستمر لتثمين الأراضي القاحلة الشاسعة، التي تشبه إلى حد كبير منطقة طرابلس، وتشرع على وجه التحديد في الزراعة في كل مكان (وبمجرد أن قررت الحكومة استعمار منطقة معينة) المؤسسات والمكاتب الفنية لاكتساب المعرفة بالمنطقة. وتابع مانيتي أن الولايات المتحدة «تمتلك اليوم ستين محطة زراعية» يسمونها «الحراس الشرعيين للتربة الأمريكية».

(2)

لم تجد كلمات فرانشيتي والفنيين الآخرين إلا آذاناً صماء، وفي مارس 1914 أنشأت إدارة المستعمرة مكتبًا زراعيًا في طرابلس كانت مهمته الأولى تنظيم معهد تجريبي زراعي: مركز للتجارب الفنية والاقتصادية يهدف إلى خلق زراعة "أكثر كثافة وثراء"، مما يؤدي أيضًا إلى إدخال الأراضي غير المزروعة في الإنتاج.

وكما يتضح من الأرشيف فإن وزارة الزراعة والصناعة والتجارة الإيطالية كانت تراقب وتدرس فعلياً النشاط الأمريكي لأساسات محطات التجارب الزراعية وكذلك الجدل الأوروبي حول إنشائها في المستعمرات منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر (1887).

إن مفهومي "المناخ الاستوائي" و"الزراعة الاستوائية" ومكانتهما في إنتاج الحداثة، في الداخل والخارج، كانا في الواقع ينموان ببطء ..

وفي منطقة سيدي المصري بطرابلس، تم تجهيز المحطة الجديدة بجميع الوظائف والأدوات الجديدة المهمة التي كان من المفترض أن تتوفر في محطة العلوم: بالإضافة إلى المكاتب، ومرصد للأرصاد الجوية، ومتحف، ومكتبة متخصصة، بالإضافة إلى "مقياس هطول الأمطار"، منظار شدة الريح، مقياس شدة الريح، البارومتر، الباروغراف، الهليوفانوغراف، مقاييس الحرارة القصوى والدنيا.

علاوة على ذلك، تم تجهيز المحطة بشخصيتين لهما أهمية ناشئة: خبير الزراعة الجافة الصقلية إيمانويل دي سيليس مديراً، والسكرتير السابق لفرانشيتي في إريتريا البرفسور الأول في الزراعة الاستوائية في المعهد الزراعي الاستعماري الإيطالي في فلورنسا (والشخصية الرئيسية المستقبلية للاستعمار الزراعي في صقلية) قويدو مانقانو كرئيس للخدمات الفنية.

(3)

ومع ذلك، ففي برقة سرعان ما أصبح الدور المضاد للثورة للزراعة واضحا. هنا، بعد أول مهمة دراسية في عام 1918 على الجبل الأخضر، بدأ المهندس الزراعي أرماندو موقيني، الذي بدأ التعاون مع المعهد الزراعي الاستعماري في فلورنسا خلال دراسته الجامعية في الزراعة في فلورنسا، العمل في عام 1920 في مكتب الخدمات الزراعية في برقة، والتي أصبحت مستقلة في النصف الأول من عام 1921،

ووضعت تحت إشراف موقيني، الذي بقي في بنغازي مشاركاً في برلمان برقة، حتى تم تعيينه مديراً للمعهد الزراعي الاستعماري في فلورنسا عام 1924.

وكما سأناقش، منذ عام 1924 فصاعداً، لعب ماوقيني دوراً رئيسياً في تشكيل الأحداث التالية والمشهد المتغير للجبل الأخضر. في الوقت الذي كانت فيه القوة الفاشية الجديدة في إيطاليا تطالب بضرورة عاجلة لتحويل ليبيا إلى بؤرة استيطانية للاكتظاظ السكاني والبطالة في إيطاليا، قدم موجيني المبادئ التوجيهية لبرنامج استعماري دقيق، يعتمد على التقليل من وإدانة الاقتصاد الرعوي للبدو.

وفي تقرير طويل للحكومة حول "نشاط مكتب الخدمات الزراعية والاعتبارات المتعلقة بمشكلة التثمين الزراعي للمستعمرة"، اقترح موجيني تركيز الاهتمام على الطريق الذي يربط بنغازي بدرنه؛ ابتداءً من طريق توكره - المرج - قورينا (شحات) إلى درنة، الذي يعبر أو يمر على مسافة غير بعيدة من المناطق الزراعية المستهدفة ذات المستقبل الواعد. كان لها القدرة على أن تشكل بطريقة معينة العمود الفقري لاستعمار الجبل وأن يحدد بوضوح المناطق على الأرض التي سيتعين على الإدارة تركيز كل الجهود عليها لإعداد البلاد لهجرات المستوطنين الإيطاليين إليها.

وحدد كذلك "أفضل جزء من منطقة البحر الأبيض المتوسط للمزارعين، والسهوب للرعاة: يجب أن يكون هذا هو المعيار التوجيهي فيما يتعلق بالتثمين الزراعي"؛ علاوة على ذلك، أشار إلى أن المشكلة الرئيسية لتحقيق هذا البرنامج كانت مسألة ملكية الأراضي، لأنه على الرغم من "عدم وجود نقص في الأراضي الجيدة"، إلا أنها كانت "كتلة واحدة في أيدي السكان الأصليين الذين يحتفظون بها بغيرة "، أكد موجيني أن إجراءات المصادرة من أجل المرافق العامة كانت "بداية سعيدة في الحل التدريجي لتوفر الأراضي".

وأكدت حجة موجيني القاطعة أنه: **"قبل الاحتلال الإيطالي، كانت برقة دولة في حالة همجية، متوحشة، مجهولة، تفتقر إلى كل شيء، بلا أمن، تعتبر غير قابلة للاختراق بالنسبة للأوروبيين، بل يتجنبها الجميع، بسبب التعصب الأعمى لسكانها ....."**

لم تنتهي علاقة موجيني برحيله من برقة بل استمر تورطه في المنطقة؛ وكما يظهر من مراسلاته المحفوظة في أرشيف المعهد الزراعي الكولونيالي الإيطالي السابق في فلورنسا، كان موجيني في الواقع شخصية رئيسية خارج وكالة استعمار برقة التي تديرها الدولة، والتي تأسست في يونيو 1932، بعد أشهر قليلة فقط من اكتمال "تهدئة المستعمرة من خلال القمع العنيف ليس فقط للمقاومة المسلحة (بإعدام عمر المختار) ولكن أيضاً لجميع السكان البدو في برقة".

أدى ترحيل السكان البدو إلى خارج أراضي الجبل، ومرسوم حكومي بمصادرة جميع ممتلكات الحركة السنوسية المنقولة وغير المنقولة الذي فرضه غراتسياني في ديسمبر 1930م، إلى السيطرة على الأراضي التي شكلت النواة التي تأسست عليها وكالة الاستعمار الجديدة وجعلها متاحة على الفور، لتشغيل مشروع كبير عماده "استصلاح الأراضي". كان لا بد من تطهير الأراضي وإزالة الحجارة وإعداد الأرض للحراثة وتقسيمها إلى مزارع صغيرة يجب بناء بيوت زراعية فردية عليها. كان هذا، في الواقع، هو الهدف الرئيسي للوكالة الحكومية الجديدة، ليس فقط التحول الزراعي للأراضي، بل أيضاً استيطان العائلات الإيطالية في تلك الأراضي.

لفهم الوضع بشكل أفضل، من المفيد مقارنة خريطة إميليو دي بونو "للمقرات العسكرية" (أي معسكرات الاعتقال) في عام 1931م مع الخريطة التي أنجزها المعهد الزراعي الاستعماري لتحديد المناطق ذات القيمة والتي سيتم تقدير قيمتها اعتباراً من 1938م، في حين أن جميع المعسكرات الرئيسية كانت تقع خارج المدرجين الأول والثاني للجبل الأخضر، أي في الشريط الساحلي بين بنغازي والعقيلة، في منطقة سرتيكا (خليج السدرة) القاحلة والرملية، فإن أراضي الهضبة الخصبة تشكل: المنطقة المخصصة لإسكان المستعمرين الإيطاليين ... "zona di popolamento".

من محاضر الاجتماعات الأولى (في أغسطس ونوفمبر 1932م)، التي شارك فيها موجيني كمستشار فني، بعد أن رفض تولي الإدارة الفنية للمنظمة بنفسه، واقترح تعيين الفني فعلياً، أنطونيو دي بينديكتيس، موجيني يبدو أنه قد وجه الخيارات الإستراتيجية الأكثر أهمية، وفوق كل شيء، اختيار مدينة بارتشي (المرج) كمقر محلي للغرض في برقة، واختيار الزاوية البيضاء (البيضاء) كنواة استعمارية أولى، واقترح موجيني مرة أخرى تغيير اسم البيضاء، وعكس معناها للحديث عن هويتها الفاشية الجديدة، حيث أن ليتوريا هو اسم مدينة جديدة أسسها موسوليني عام 1930م، كجزء من مشروع كبير لاستصلاح مستنقعات الملاريا جنوب روما.

وفقًا لكلوديو سيقري، في تقرير مهم آخر من عام 1933م إلى المدير الجديد للوكالة لويجي رازا، أوصى موجيني بعدم السماح للبدو، الذين تم ترحيلهم إلى المعسكرات، بالعودة إلى الجبل، واقترح نظاماً بديلاً لحجزها لهم كمراعي بعيداً عن مناطقهم الأصلية.
وكما قال الحاكم غراتسياني خلال الاجتماع الثاني للوكالة في نوفمبر 1932م، فإنه يؤيد "ترك الجبل بأكمله تحت تصرف الوكالة" من خلال تحديد "القبائل الأصلية التي ستغادر معسكرات الاعتقال إلى مناطق (غير أوطانهم الأصلية) ما قبل الصحراء".

(5)

هل كانت خطة إيتالو بالبو للاستعمار المكثف عام 1937م أكثر لطفاً تجاه السكان المبعدين من الجبل؟
وكما أشار فيديريكو كريستي، فإن تحليل الوثيقة التي أرسلها بالبو إلى موسوليني، والتي كان موجيني أحد مؤلفيها الرئيسيين، يسلط الضوء بوضوح على خطة سياسية تهدف إلى استكمال التجريد النهائي من ملكية السكان الليبيين وإفقارهم.
يقول بالبو: "في 31 ديسمبر 1937م، بلغ عدد السكان الأوروبيين في ليبيا 78.818 نسمة؛ الليبيون بـ 744.031، منهم 714.643 مسلما. في السنوات الأخيرة، كانت هناك زيادة سريعة في المستوى المدني للسكان العرب، وهي زيادة، إذا كانت مصدر فخر لنا، فمن المؤكد أنها ستؤدي، على المدى الطويل، إلى حركة قومية. علينا أن نبقي أعيننا مفتوحة على تطور العالم الإسلامي، حيث إن العالم الإسلامي منزعج للغاية ومضطرب ويهدف بشكل متزايد إلى تضامن إسلامي واسع يشمل أتباع الدين المنتشرين في جميع أنحاء الشرق والغرب. وفي الصندوق المشترك للتضامن الديني، تعمل الأيديولوجيات ذات الأصل الأوروبي كخميرة غير نقية، ولكنها فعالة تميل إلى إثارة الجماهير نحو كراهية القوى والحكومات الأوروبية. فهل الحل إذن هو توفير ظروف معيشية أفضل ...؟

على العكس من ذلك، فإن التطور المحتمل للمطالبات القومية يتطلب، وفقاً لبالبو، عمل سياسياً واقتصادياً يهدف إلى خلق ثقل موازن فعال لأغلبية السكان المسلمين: "في رأيي من الضروري للغاية أنه في وقت قصير في ليبيا، ستواجه كتلة كبيرة من السكان الأصليين كتلة أكبر مكونة من قوميات أخرى، التي لن تفشل مع مجموعات من ذوي المصالح، في السيطرة على المحافظات الأربع بكل معنى الكلمة.
لذلك اقترحت خطة الاستعمار الديموغرافي المكثف لليبيا نقل 3000 عائلة من المستوطنين الإيطاليين إلى ليبيا، أي ما يعادل حوالي 30.000 شخص، في غضون عامين، وتثمين ما يقرب من 133.000 هكتار من الأراضي من خلال إنشاء 3100 مزرعة.

بالنسبة لبالبو، لم تكن الخطة، وكذلك الفنيين الذين ساهموا في صياغة الخطة، واضحة فحسب، بل كانت أيضاً جزءً من النتيجة المتوقعة والمرغوبة المتمثلة في قيام السكان الإيطاليين الجدد بالاستيلاء على الموارد من السكان الليبيين. وبهذا المعنى، فإن الاستعمار المكثف هو في جميع النواحي أداة ليس فقط للسيطرة الناعمة على الأراضي، بل هو شكل جديد من أشكال الإكراه، غير المرئي تقريباً، للسكان، الذين تم تدمير وسائل عيشهم الحقيقية عمداً. يعد "الاستيلاء" على الأراضي المتاحة جزءً لا يتجزأ من هدف البرنامج: فالقرى الزراعية هي أداة لشكل جديد من الحرب التي لم تعد تعمل الآن من خلال اعتقال السكان، ولكن من خلال استخدام وسائلها الأساسية الجديدة، حرب الموارد، بدءاً من الاستيلاء على الأرض (التربة) والمياه.